عراقة الفقه المالكي في غليزان وأحوازها

أ. احسن زقور
جامعة وهران - الجزائر

من المعلوم قطعًا أن الفقه المالكي هو أعرق فقه استوطن الجزائر منذ الفتح الإسلامي الأول إذ دخل مع أول دفعة من الصحابة الفاتحين... ولقد كان أغزر فقه دخل الجزائر عبر العصور وقد كان يدعى فقه عمر بن الخطاب، إذ حمل إليها من المدينة المنورة مع الفاتحين ثم مع الذين جاءوا من بعدهم... هذا الفقه الذي أول ما طبق، طبق بين يدي رسول الله ﷺ... ولقد تشبث أهل الجزائر بالفقه المالكي عبر العصور أعظم تشبث حتى عم كل القطر من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه — إلا ندرة — لا تذكر من فقه المذاهب السنية الباقية، وقلة من الفقه الإباظي بوادي المزاب... وهذه العراقة للفقه المالكي جعلت الناس يقيمون المراكز العلمية لدراسته عبر العصور وعبر المناطق المختلفة في الجزائر، ومن هذه المناطق والأحواز التي هيا الله لها الإمكانيات اللازمة لإقامة مراكز فقهية وعلمية كبيرة نجد منطقة غليزان وأحوازها حيث استطاع أهلها أن يقيموا فيها عدة مراكز وزوايا أذكر منها المركز الكبير "مدرسة مازونة" التي استمرت طويلاً في تدريس الفقه المالكي ونشره في شتى ربوع هذه المنطقة وفي كل الأماكن المجاورة لها بشتى الطرق، ومن أبرزها، كان طلبة العلم والمتخرجون منها، وأذكر من المراكز كذلك القلعة و....

فما مدى عراقة الفقه المالكي في الجزائر عامة؟، وما مدى عراقته في غليزان وأحوازها خاصة؟

وما هي المدارس التي كانت سببًا في نشر هذا الفقه فيها عبر العصور؟ وما هي العوامل التي جعلت أهل هذه المنطقة يعضون عليه بالنواجد.

وما هي آثار النبي ﷺ التي أثرت فيهم التأثيرات البالغة؟ (القرآن + الحديث + الفقه المدينة المنورة).

1- انتشار الفقه المالكي في الجزائر وتمسك أهلها به:

إن الكلام عن انتشار الفقه المالكي في الجزائر وتمسك أهلها به ليندرج في إطار الكلام عن انتشار الفقه المالكي في سائر المغرب العربي وتمسك أهله به، لم تكن دول هذه المنطقة بمعزل عن بعضها البعض، وكذا الأندلس وسائر وسط إفريقيا حتى.

أ/ أسباب انتشاره في الجزائر وتمسك أهلها به:

لقد توفرت عدة أسباب لأهل الجزائر جعلتهم من أشد الناس تمسكًا به ونشرًا له بين ربوع أهلهم من هذه الأسباب:

حب النبي ﷺ الذي غلب أهل الجزائر، ومنه حب مدينته المنورة مما جعل قلوبهم تهفوا إلى الرحيل إليها لزيارة محبوبهم رسول الله ﷺ باستمرار ثم لطلب العلم فيها والوقوف على آثاره عليه الصلاة والسلام وآثار أصحابه رضوان الله عليهم، وكذا الرحيل إليها عند أداء مناسك الحج أو العمرة أو التجارة أو أي مناسبة تحملهم إلى الاقتراب منها... فينهلوا من سماعهم بسنة رسول الله ﷺ من طرف مالك بن أنس ويرون ذبه عن السنة النبوية ونصرته إياها، فيعودون إلى أوطانهم وهم يحملون هذه الصورة الجميلة للمدينة المنورة ليقصوها على الآخرين،

فتكون سببًا لتكرار ما فعل هؤلاء، وهكذا...يقول في هذا الشأن الشيخ محمد أبو زهرة: (إن طلاب العلم كانوا يجدون في ملازمة درس مالك مجاورة للرسول ﷺ فأقبلوا عليه أيما إقبال ولزموه أتم ملازمة)[1].

كثرة من رحل إلى المدينة المنورة من أهل الغرب الإسلامي عامة وأهل الجزائر خاصة لطلب العلم ثم عودتهم إلى أوطانهم ناشرين علم مالك ومذهبه حيث كانت الطلائع الأولى من هؤلاء الطلاب قد رحلت من القيروان وتونس بحكم قربها أكثر من باقي الغرب الإسلامي إلى المدينة المنورة، وبحكم أن القيروان قد ظلت في كامل نشاطها العلمي والعمراني منذ الفتح الإسلامي الأول، ومن هذه المدينة انطلق هؤلاء الطلاب بعد أن عادوا وأصبحوا مشايخ نحو الجزائر – بحكم القرب – ثم نحو المغرب الأقصى، لتعليم الناس ما تعلموه.

المكانة العالية التي كان يتلقاها هؤلاء الطلبة العلماء بعد رجوعهم إلى أوطانهم في نفوس الناس عامة حكامًا ومحكومين.

الاهتمام الحثيث لأئمة المذهب المالكي في نشر العلم بعد عودتهم من رحلاتهم العلمية حيث كان هو اهتمامهم الكبر، وتركوا التزلف إلى الحكام خشية المماألأة والترخص لهم فيما لا يستأهلون فيه الترخص، وكذا رفضهم الدائم لمناصب القضاء وللمسؤوليات التي قد تعيقهم عن القيام بأتم أعمالهم في نشر العلم، ولا أكبر دليلاً على رفض منصب القضاء من رفضه من طرف علي بن زياد شيخ المالكية الأول بالقيروان، وابن أشرس، والبهلول بن راشد، وسحنون بن سعيد التنوخي الذي لم يقبل به إلا بعد إلحاح كبير من الحاكم حيث كاد أن يرغمه عليه بالقوة والقهر إذ أغلظ له الأيمان في توليته إياه ولو كرها، وبعد أن أخذ منه المواثيق الكبيرة على إطلاق يده في كل شيء لإقامة العدل حتى وإن على نفسه وعلى أهله وحاشيته، قال في ترتيب المدارك: قال سحنون للأمير:

(أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك فإن قبلهم ظلامات للناس وأموالاً لهم منذ زمن طويل، إذ لم يجترئ عليهم من كان قبلي، فقال لي: نعم، لا تبدأ إلا بهم، واجر الحق على مفرق رأسي، فقلت آ الله؟ فقال لي آ الله ثلاثًا)[2] كما اشترط عليه ألا يأخذ منه راتبًا على عمله هذا...ولما أخذ منه كل هذه المواثيق وكل هذه الشروط وقبل بالمنصب رؤي سحنون يمشي على قدميه بدون رداء وهو حاسر الرأس يقول لابنته وهي تلاقيه: (اليوم ذبح أبوك يا ابنتي) وما قال هذا إلا خوفًا من هذه المسؤولية الكبيرة، وزهدًا في القضاء وفي سائر المناصب، بل في كل الدنيا.

ومنهم كذلك يحي بن عمر تلميذ سحنون، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي زيد القيرواني، وأبو الحسن الفاسي وغيرهم كثير.

حركة التأليف الواسعة في الفروع التي بناها المالكية على أصولهم الواسعة والمتعددة خاصة الدواوين المطولة منها، مثل مدونة سحنون وما قام فيها من استوثاق للأسدية مع ابن القاسم وتأصيل وتذييل لكل موضوع بأدلته من الكتاب والسنة النبوية، وكذلك واضحة ابن حبيب التي نسجها على منوال المدونة، والمستخرجة أو العتبية للعتبي، والمجموعة لابن عبدوس وغيرها كثير ألفت على مر العصور.

مناصرة المعز لدين الله بن باديس الصنهاجي الذي حمل على الشيعة فأخرجهم من القيروان آخر معاقلهم بالغرب الإسلامي، ثم الدعوة لبني العباس واختياره المذهب المالكي منعًا لعودة الاصطدام الذي كان بين المذهب المالكي والحنفي أول الأمر، ثم بين المذهب المالكي والشيعة العبيديين الفاطميين ثانيًا.

كثرة أصول المذهب المالكي وتعددها ومرونتها وقدرتها على التفريع، إل جانب غزارة قواعده.في الفروع والأصول كما رأينا سابقًا، مما جعل الفقه المالكي فقهًا واقعيًا مصلحيًا يراعي أعراف الناس وعوائدهم، جالبًا لمصالهم حتى وإن كانت مرسلة،

والقاعدة: أنه كلما كثرت الأصول والقواعد: كلما أمكن حل أي مشكلة تعتري الناس في أحكام معاشهم أو أحكام عباداتهم، وكلما تحقق للناس ذلك كلما عاشوا في وسع كبير وفي سعادة أكبر، فأحبوا من وسع عليهم وأحبوا من كان سببًا في التوسعة عليهم.

وكل هذه الثروة الهائلة من الأصول وقواعد الفروع في المذهب المالكي وعدم توفرها في المذاهب الأخرى جعل فقهه هو أمرن وأوسع فقه على الإطلاق، وفي هذا الشأن يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إن المذهب المالكي بغزارة قواعده وتنوع أصوله يكون هو أقرب إلى الفطرة الإنسانية التي يشترك فيها الناس ولا يختلفون إلا قليلاً بحكم الإقليم والمنازع والعادات الموروثة)[3].

مراعاة عمل أهل المدينة المنورة ومكانته عند المالكية، خاصة عند إمامهم مالك رضي الله عنه، إذ يظهر ذلك جليًا في أصوله وفروعه، "قيل لمالك: قولك في الموطأ: الأمر المجمع عليه، و الأمر عندنا، والأمر عندنا، والأمر ببلدنا، وأدركت أهل العلم ببلدنا؟ فقال: ما أكثر ما في الكتاب "برأي"، ولعمري ما هو رأيي، بل سماعي عن غير واحد من أهل العلم المقتدى بهم، فكثروا علي، فغلب رأيهم، ورأي الصحابة أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا عليه وراثة توارثوها قرنًا عن قرن إلى وقتنا وما كان رأيي فهو هكذا: "الأمر عندنا": ما عمل به الناس عندنا، وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم، وما قلت بعض أهل العلم: فشيء استحسنته من قول العلماء، وما لم أسمع منهم اجتهدت على مذهب من لقيت، حتى لا أخرج عن مذهب أهل المدينة، وإن لم أسمع شيئًا نسبته إلى نفسي بعد اجتهادي مع السنة، وما عليه أهل العلم، والأمر المعمول به عندنا من زمنه ﷺ والأئمة بعده: فهو رأيهم ما تركته لغيره".

قال الشيخ الأطرش معقبًا على هذا النص:ففي هذا النص كلام صريح في أنه لا يخرج عن آراء علماء المدينة، فإن اختلفوا: اختار ما جرى به العمل في الأحكام وتعارف عليه الناس، أو يستحسن ما يراه أصوب، وإن لم يسمع شيئًا: اجتهد برأيه، وبالضرورة أن يكون مالك وهو رمز علماء المدينة ملتزمًا بما ثبت عندهم، لأنها مسقط رأسه ومهد شبابه، ومدرسة تكوينه، لا يطيب له بديل عنها، ولأنها البقعة الطاهرة التي قال فيها سيدها محمد ﷺ: "إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها"[4]، وذلك للميزات الآتية:

- **أولهما:** إنها مدفن جسده الشريف ﷺ، ومدفن أجساد خيرة أصحابه.
- **ثانيها:** دعاء الرسول ﷺ لساكنيها لأن يبارك الله في مكيالهم وصاعهم ومدهم، وبقوله"أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به إبراهيم لمكة مثله معه"[5].
- **ثالثها:** نقاؤها من البدع وسلامتها من الفرق الشاذة كالتشيع، والإرجاء، والإعتزال، وبدع النساك، مما كان ظاهرًا في البصرة والكوفة والشام آنذاك، وإن كان لها أثرها في المدينة إلا أنها كانت مكبوتة مهانة.
- **رابعها:** شيوخه كلهم من أهل المدينة المنورة كعمر، وابن عمر، وسعيد ابن المسيب و...إلا ستة فقط: أبو الزبير محمد ابن سالم المكي، وأبو عبيدة حميد الطويل الخزاعي، وأيوب السختياني البصري، وعطاء ابن عبد الله الخرساني[6]....

ثم عقب الشيخ على ما سبق قائلاً:"وبهذا شغفته مدينة الرسول حبًا، فرأي علمائها أوثق من غيرهم علمًا، وألزمهم لسنة رسول الله ﷺ[7]...، وإذا كان مالك قد شغف بمدينة رسول الله حبًا فكيف لا نصرع بحبها ونجن كما جن المجنون قيس بليلى؟ إن المدينة والله لهي أجمل من ليلى، فحق لكل من يهواها أن يجن بحبها، وإذا جننا بها فلا لوم علينا بذلك لأن الحب والجنون يدخلان على الناس اضطرارًا وليس اختيارًا، بل

حتى وإن خيرنا في جنوننا بها لاخترناه وما ترددنا...ومن النص السابق وتعقيب الشيخ عليهنرى عاطفة جياشة منه لرسول الله ﷺ ولمدينته ولفقهها ولكل من اتبع فقهها، عاطفة تهز قلوب كل من يقرأ هذه الأسطر ويجيل النظر فيها... فمما سبق ندرك الدليل على تلك العاطفة الجياشة من أهل الجزائر نحو فقه النبي ﷺ التطبيقي ثم فقه الصحابة وتابعيهم وهو فقه المدينة المنورة الذي هو فقه المالكية إذ ما الشيخ الأطرش السنوسي إلا واحد منهم... ثم هذا الذي نقل إلى الغرب الإسلامي عامة على يد الشرفاء وتوغل حبهم وحب المدينة المنورة في أبناء الجزائر... كما فيه الدليل على تمسكهم به مهما كلفهم ذلك من محن ومشقات كما حدث لهم في الماضي مع العبيديين الشيعة ثم مع الموحدين الظاهريين بالقهر والقوة، ومع تسلط القضاة الحنفية بالقيروان الذين كانوا مع السلطة الحاكمة... كل هذا بمجرد ما إنزال: حتى عاد الناس إلى المذهب المالكي أكثر تمسكًا مما كانوا عليه قبل تلك المحن... واليوم نجد الناس يتسارعون نحو العودة إلى الفقه المالكي تسارعًا كبيرًا بمجرد زوال المحن التي ألمت بهم بسبب محاولة البعض تغيير المذهب المالكي بمذاهب أخرى..."

وإن من شدة تمسك الجزائر وأهلها بالمذهب المالكي وفقهه عبر الزمان فقد أصبح فيها أصيلاً بلديًا صاحب الدار، مما جعل أي من يتمذهب بأي مذهب آخر غريبًا عندهم، ملفتًا للأنظار، وكأنه مسافر حل ببلدهم، فهم ينظرون إليه ضيفًا غريبًا حل بينهم يكرمونه كرم الضيافة وينتظرون سفره وعودته إلى بلده والكل يقول بلسان حاله "الضيف ضيف حتى وإن بقي الشتاء والصيف"، فهو راحل راحل لا محالة.

ب/ نظم ابن أبي كف في أصول المالكية:

وقد صاغ هذه الأصول الشيخ ابن أبي كف في قصيدة رائعة اتبع فيها عد الأصول المالكية عدًا، ولأهميتها أكتبها كاملة:

الحمد الله الذي قد فهما ... دلائل الشرع العزيز العلما
ثم الصلاة والسلام أبدا ... على النبي الهاشمي أحمدا
وآله الغر وصحبه الكرام ... والتابعين لهم على الدوام
وبعد: فالقصد بذا النّظْم الوجيزِ ... نظم مَبَانِ الفقه في الشرع العزيز
فقلت: والله المعين أَستَعِين ... وأستمد من فتحه المبين
أدلة المذهب مذهب الأغرّ ... مالك الإمام ستة عشر:
فَهْمُ الكتاب ثم فهم السنة ... سنة من له أتم المنة
وظاهر الكتاب والظاهر من ... سنة من بالفضل كله قمن
ثم الدليل من كتاب الله ... دليل سنة الأواه
ومن أصوله التي بها يقول: ... تنبيه قرآن وسنة الرسول
وحجة لديه مفهوم الكتاب ... وسنة الهادي إلى نهج الصواب
ثمت تنبيهُ كتاب الله ثُمْ ... تنبيه سنة الّتجاها عَظُمَ
ثمت اجماعٌ وقَيسٌ وعَمَلْ ... مدينة الرسول أسخى مَنْ بَذَلْ
وقول صحبه والاستحسان ... هو اقتفاء ما له رجحان
وقيل بل هو دليل ينقذف ... في نفس مَنْ بالإجتهاد متصف
ولكن التعبير عنه يقصر ... به فلا يعلم كيف يُخبر
وسد أبواب ذرائع الفساد ... فمالك له على ذاك إعتماد
وحجة لديه الاستصحاب ... ورأيه في ذالك لا يعاب
وخبر الواحد حجة لديه ... بعض فروع الفقه قد بُنِي عليه
وبالمصالح عَنَيتُ المرسله ... له احتجاج حَفِظَتهُ النَّقَلَه
ورعي خلف كان طوراً يعمل ... وعنه كان طورا يُعدل
وهل على مجتهد رعي الخلاف ... يجب أم لا فيه قد جرى اختلاف
وهذه خمس قواعد ذُكر ... فروع الفقه فيها تَتحَصِرْ
وهي اليقين حكمه لا يرفع ... بالشك بل حكم اليقين يتبع

وضـــرر يـــزال والتـــسير مـــع ... مـــشقة يـــدور حيثمـــا يقـــع
وكـــل مـــا العـــادة فيـــه تـــدخل ... مـــن الأمـــور فهـــي فيـــه تعمـــل
وللمقاصـــــد الأمـــــور تتبـــــع ... وقيـــل ذي إلى الـــيقين ترجـــع
وقيـــل للعـــرف وذي المقاصـــد ... خمـــستها لا خلـــف فيهـــا وارد
قـــد تم مـــا رمـــت ولله الحميـــدُ ... مـــني حمـــد دائـــم لا يبيـــد
وأطيـــب الـصـلاة وأسنى الـسـلام ... علـــى محمـــد وآلـــه الكـــرام

2- مدرسة الفقه المالكي في شمال إفريقيا:

أ/ حدودها:

ونعني بهذه المدرسة مجموعة المراكز التي تمتد من القيروان إلى فاس مع حواشيها الجنوبية، فهي: القيروان، تونس، بجاية، مازونة، تلمسان، فاس...

فلما كانت القيروان هي الحضيرة المغربية المتقدمة نحو المشرق وهي التي اتسمت بالنشاط العلمي والعمراني الحثيث منذ الفتح الإسلامي الأول...فقد قيض الله تعالى رجالاً من بني جلدتها سافروا إلى المدينة المنورة خاصة لتلقي العلم (الحديث والفقه) عن الإمام مالك ثم العودة إليها بعد التحصيل: منهم أبو الحسن علي بن زياد التونسي دارًا، الطرابلسي مولدًا ونشأة المتوفي بتونس سنة 183هـ وهو صاحب الرواية المشهورة للموطأ، وهي الأولى التي وصلت إلى القيروان خاصة وإلى الغرب الإسلامي عامة حيث تولى صاحبه على بن زياد روايتها وتدريسها للناس، ومنه تدريس الفقه المالكي عامة...والذين طلبوا العلم من الرعيل الأول في المدينة المنورة على الإمام مالك، كما أحصاهم الدكتور عمر الجيدي: أبو علي شقران بن علي القيروان (ت.186هـ) وأبو محمد عبد الله بن فروخ الفاسي القيرواني (ت.176هـ)، وأبو محمد عبد الله بن عمر بن غانم الرعيني (ت.191هـ)، وأسد بن الفرات (ت.213هـ) العالم الفذ والمجاهد

القائد الكبير حيث فتحت صقلية على يده واستشهد على ترابها الطاهر يومها، وعباس بن أبي الوليد، وأبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي (ت.220هـ) وأبو محمد عبد الله بن أبي حسان اليحصبي (ت.229هـ)، وأبو عبد الرحمن بن ثوبان الرعيني (ت.190هـ) وسقلاب بن زياد الهمذاني (ت.193هـ) وأبو عون معاوية بن الفضل الصمادحي (ت.199هـ)، وأبو عثمان المعافري، ويزيد بن محمد الجمحي، وعمر بن الحكم اللخمي، وأبو طالب الأبزاري، وأبو عبد الله بن زرارة، وأبو الحجاج الأزدي (ت.237هـ)، والحارث بن أسد القفصي، وعبد المؤمن بن المستنير الجزري، وعلي بن يونس الليثي، وغيرهم كثير...وهؤلاء كلهم قد تتلمذوا لمالك وأخذوا عنه مباشرة، فلما عادوا إلى القيروان بثوا علمهم بين الناس وما يزال المذهب يتسع وينتشر خاصة بعدما جاء الإمام الفذ عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون (ت.240هـ)، حيث تتلمذ على الكثير من هؤلاء الأفذاذ منهم شيخهم الأكبر علي بن زياد[8]، قال عنه عياض في ترتيب المدارك: (أول من فسر لأهل المغرب قول مالك ولم يكونوا يعرفونه وكان قد دخل الحجاز والعراق في طلب العلم وهو معلم سحنون الفقه[9] ثم أسد بن الفرات، وقام بعدها بذلك العمل الرائع في المدونة حيث استوثق من نصوص الأسدية من عبد الرحمن بن القاسم، الذي رواها لأسد بن الفرات، والتي تسمى باسمه (الأسدية) ثم أصلها على أصول مالك، وأضاف لها ما أضاف من أقوال أصحاب مالك وتلاميذه، وختم كل موضوع منها بمجموعة من الأحاديث والآثار، فكانت بحق هي الكتاب، وهي التي صارت علمًا هكذا، إذ لما يطلق اسم الكتاب عند المالكية ينصرف الذهن إليها لا إلى غيرها، حيث كانت هي الكتاب الأول في فروع المذهب وهي العمود الفقري له على مر السنين والقرون، بل إلى يومنا هذا، قال في معالم الإيمان: (إذا أطلق الكتاب فإنما يريدونها – أي المدونة – لصيرورته عندهم علمًا للغلبة عليها، كالقرآن الكريم عند هذه الأمة، وكتاب سيبويه عند النحويين[10].

وهكذا بعمل سحنون قد استقر المذهب المالكي تمام الاستقرار في القيروان ثم في تونس وسائر أقطار الغرب الإسلامي...بل حتى في الأندلس بعد واضحة ابن حبيب.

ونلخص مما سبق أن علي بن زياد كان له الفضل السبق إلى نشر المذهب المالكي في القيروان، ثم في بقاع أصقاع الغرب الإسلامي، وأن سحنونًا بن سعيد كان له فضل التثبيت للمذهب في هذه الحواضر والأصقاع بتأصيل فقهه والدفاع عنه، وذلك واضح جلي من تأصيل نصوص المدونة بالحجج الدامغة ومن استوثاق نصوصها من ابن القاسمي راويها عن مالك، وترتيبها الترتيب الحسن، يقول الشيخ النيفر في مقدمته على موطأ علي بن زياد: (وهذه المدرسة – مدرسة المالكية بالغرب الإسلامي – التي وضع لبنتها علي بن زياد، وهي مدرسة مالك بن أنس فهو الذي أدخل مذهبه هذه الديار المغربية، وعرف به وشرحه للناس، وبين قواعده حتى اقتنعت به الأفكار، ولم يجتذبها إليه بسلطان ولا نفوذ[11]، ولقد امتازت هذه المدرسة في الفروع بالبحث عن ألفاظ مدونة وتحقيق مسائلها وتصحيح رواياتها وبيان وجوه احتمالاتها والتنبيه على ما فيها من اضطرابات إن وجدت واختلاف بين أقوال الأئمة[12].

ب/ تنازع المذهب المالكي مع المذاهب التي تواجدت معه في القيروان:

وأول مذهب ساد في القيروان كان هو المذهب الحنفي حيث كان هو المذهب الرسمي للدولة العباسية الحاكمة على القيروان، ثم تراجع أمام المذهب المالكي لما انتشر في ربوعها على يد هؤلاء الفقهاء الأفذاذ كما ذكرت سابقًا...ثم قد تنازع عن القيروان مع المذهب المالكي عدة مذاهب إلى جانب المذهب الحنفي مثل المذهب الشيعي الفاطمي والمذهب الإباضي، إلى جانب الصفرية والمعتزلة...قال الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية: (ولقد كانت بإفريقية مذاهب الشيعة والصفرية والإباضية والنكارية والمعتزلة، وكانت بها من مذاهب أهل السنة: مذهب أبي حنيفة النعمان، ومذهب مالك بن أنس...)[13]. ولقد كانت كل هذه المذاهب تفرض على الناس فرضًا بواسطة السلطان خاصة المذهب الشيعي حيث لقي علماء المالكية وسائر

علماء أهل السنة الويلات منهم، وكان هذا هو شأنهم حيث كانوا كلما دخلوا بلدة إلا وأجبروا أهلها على ترك مذهبهم والتمذهب بالمذهب الشيعي، بل حتى المدينة المنورة مدينة النبي ﷺ لم تسلم من بطشهم هذا...وما يقال على الشيعة وما فعلوه بالمالكية يقال على دولة الموحدين إذ وصل بهم الأمر إلى إحراق أي كتاب في فروع المالكية يقع بين أيديهم خاصة المدونة وفرضوا مذهبهم الظاهري بحد السيف زمانًا طويلاً بطول فترة حكمهم... إلا أن علماء المالكية وفقهائهم كانوا في المستوى اللائق بهم في الوقوف أمام كل هذا الإبعاد وهذا التشديد والتقتيل والتمثيل بهم صابرين محتسبين...إلى أن جاء المعز بن باديس حيث رفع الغبن عنهم بطرد الفاطميين المتأخرين من القيروان، كما كان أسلافه قد طردوهم من أرض الجزائر وعادت للمذهب المالكي مكانته، إلى مجيء العثمانيين حيث حكموا البلاد بالمذهب الحنفي مرة ثانية.

جـ/ المذهب المالكي في الجزائر:

من المعروف تاريخيًا أن قبيلة زناتة ودولة صنهاجة في الجزائر قد والتا الإمارة الأموية في الأندلس، ولما كانت هذه الأخيرة تتمذهب بالمذهب المالكي من أول ما وصل إليها موطأ مالك على يد الإمام شبطون ثم على يد يحي بن الليثي...فقد كانت الجزائر الزناتية والصنهاجية على مذهب الإمام مالك راعية له كما روعي من طرف الأمويين بالأندلس، ولقد تكسرت هذه الرعاية أكثر فأكثر بعد مجيء المرابطين إلى الأندلس ثم فرض سيادتهم على سائر الغرب الإسلامي ولقد حدث للمالكية في الجزائر من الغبن الكبير من طرف الشيعة الفاطميين لما سادوا البلاد كما حدث لأهل القيروان، بل أشنع مما حدث لأهل القيروان بحكم نشأة الدولة الفاطمية على أرض الجزائر بمنطقة (كتامة) بالشرق الجزائري بين قسنطينة وجيجل، هذا من جانب الشيعة الفاطميين، أما من جانب الموحدين فلم يكن حال الجزائر بأحسن من حال شقيقتيها تونس والمغرب الأقصى من تسلطهم على كل من تمذهب بالمذهب المالكي، خاصة من سولت له نفسه أن يبحث في الفروع الفقهية...

د/ دخول المذهب المالكي إلى المغرب الأقصى عن طريق الجزائر:

يروى أن الملك إدريس هو الذي دعا الناس إلى الأخذ بالمذهب المالكي، وهو الذي رسم القضاء المالكي في محاكم الدولة، إلا أن المغرب الأقصى قد ورث الكثير الكثير من تراث المدرسة الأندلسية بعد أن انهار الحكم في الأندلس وتغلب النصارى على المسلمين وهاجر الكثير منهم فارين إلى المغرب الأقصى حيث أنشئت لهم أحياء كثيرة خاصة بهم، وقد حملوا معهم ما حملوا من الموروث المالكي الفقهي، إلى جانب ما وصله من الحواضر الشرقية، خاصة حضيرة القيروان وتونس ثم تلمسان ومازونة وبجاية و....

هـ/ محن المدرسة المالكية في شمال إفريقيا:

إن المدرسة المغربية قد تعرضت للهزات العنيفة والمضايقات الكبيرة من طرف الحنفية الذين كانوا يوالون السلطان في كل عصر ومصر خاصة في القيروان، واتهامهم في تساهلهم في أحكامهم أمام السلاطين لتحقيق مآربهم الدنيوية وفي ذلك يقول محمد بن حسن شرحبيلي: (ففي إفريقية ظل المذهبان المالكي والحنفي يتنازعان الظهور والغلبة منذ دخول المذهب المالكي إفريقية على يد علي بن زياد التونسي، وذلك خلال عصر ولاة بني العباس على إفريقية أيام أبي جعفر المنصور (136 – 158هـ) واستمر الصراع بين المذهبين بقية عصر الولاة، وكان آخرهم محمد ابن مقاتل العكي الذي امتحن البهلول ابن راشد القيرواني بضربه وحبسه وقد مات على إثر ذلك الضرب، وكان ضربه بسبب وقوفه في وجه العكي عندما أراد أن يرسل هدية لحاكم الروم فيها سلاح وخيل ونحاس، إذ بهديته هذه يقوي الروم على المسلمين، وعلى إثر هذه الحادثة الشنيعة عزل هارون الرشيد علي ولاية إفريقية وولي مكانه جد الأغالبة إبراهيم بن الأغلب بن سالم سنة 184هـ[15] ثم احتدم الصراع واشتد بين المذهبين طيلة حكم بني الأغلب إفريقية من سنة 184هـ إلى سنة 297هـ وهي سنة سقوط إمارة الأغالبة وبداية حكم الدولة الفاطمية الشيعية لإفريقية[16].

كما تعرضت المدرسة المغربية للهزات الأعنف، وللضربات الأقوى من طرف الشيعة الفاطمية إذ أعملوا في فقهائها السيف للقضاء عليها، بل لم يسلم منهم حتى عامة الناس تنكيلاً بهم حتى يتركوا مذهبهم إلى المذهب الشيعي، إذ يروي المؤرخون للمذهب المالكي بأنهم قد قتلوا المؤذن الذي رفض أن يقول في أذانه (حي على خير العمل) كما تقول الشيعة في أذانها وذلك بعد أن قطعوا لسانه وشملوا عيناه – عصبوا عيناه بالشملة وهي قطعة من قماش توضع على الرأس عمامة – وطافوا به في الأسواق تنكيلاً به، كما سجنوا وقتلوا الكثير من الفقهاء لتمسكهم بالسنة[17].

كما منع عبيد الله الشيعي فقهاء المالكية من القضاء والإفتاء والتدريس وعمل على عزلهم عن العامة حتى يمنع مناصرة بعضهم البعض ضد الشيعة، كما فرض سب أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعائشة وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم[18] بل يصور لنا صاحب معالم الإمام هذه الفترة في أقسى منحة على فقهاء المالكية وهم صابرون قائلاً: (وجزى الله مشيخة القيروان خيرًا، هذا يموت وهذا يضرب وهذا يسجن...وهم صابرون لا يفرون، ولو فروا لكفر العامة دفعة واحدة[19].

كما يصور لنا محمد شرحبيلي الموقف ببعض الدقة في الأسماء قائلاً: وكان الصراع بينهم – الشيعة الفاطميين – وبين المالكية أشد ضراوة وأوخم عواقب، امتحن فيه أعلام المالكية كابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي وغيرهم كثير، امتحنهم العبيديون وأعوانهم ممن انتحل نحلتهم، وممن تشرق من الكوفيين امتحانًا عسيرًا[20].

ثم يقول معقبًا على نهاية هذه المحنة والخلاص منها: ثم حانت نهاية المحنة وبرقت بارقة الخلاص على يد المعز لدين الله ابن باديس الصنهاجي رحمه الله، فهو الذي قطع دعوة العبيديين الروافض من إفريقية، ودعا لخلفاء بني العباس، وحسم مادة الخلاف

في المذاهب، وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وإمام دار الهجرة، وأزال أسماء العبيديين من السكة ونقش فيها ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[21] وذلك سنة 441هـ [22].

3- آثار مؤلفات الفقه المالكي في أهل الجزائر ومراكز تدريسه:

أ/ آثار مؤلفات الفقه المالكي في أهل الجزائر:

لقد مر التأليف في الفقه المالكي بعد تأليف الموطأ بثلاثة مراحل وكل مرحلة لها من الآثار ما لها على أهل الجزائر نوجزها كما يلي:

1- **مرحلة تأليف الأمهات من المطولات**، وهي مرحلة تأليف الدواوين المشهورة والمعتمدة في المذهب وهي: مدونة سحنون عن ابن القاسم، واضحة ابن حبيب عن ابن القاسم، المستخرجة أو العتبية للعتبي، المجموعة لابن عبدوس، الموازية لابن المواز، النوادر والزيادات لابن أبي زيد القيرواني ويكفي أن أذكر آثار ديوان واحد من هذه الدواوين على هل الجزائر وهو المدونة الكبرى لنعرف مدى تشبثهم بها حيث تذكر كتب التراجم أن المدونة بمجرد ما وصلت إلى الجزائر عن طريق القيروان حتى هب كل فقهائها وقضاتها ومفتيها إليها فولعوا بها واقتصروا عليها درسًا وحفظًا وتطبيقًا، وهجروا الاسدية وكل الدواوين الأخرى سواء أكانت مالكية أم غير مالكية.

2- **مرحلة المختصرات**، وتبدأ بمختصرات ابن عبد الحكم وانتشارها في العراق واعتمادها من طرف مدرستها المالكية الاعتماد الأكبر، ومختصراته تتمثل في مختصره الكبير ومختصره الأوسط ومختصره الصغير، أما مرحلة الازدهار في التلخيص فتبدأ في بداية القرن الرابع الهجري على يد فضل بن سلمة الجهني (ت.319هـ) حيث اختصر المدونة والواضحة والموازية، ثم محمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلي (ت.341هـ) حيث اختصر المدونة، ثم ابن أبي زيد القيرواني

(ت.386هـ) باختصاره المدونة، ثم البرادعي صاحب تهذيب المدونة، ثم ابن الحاجب (ت.616هـ) اختصر المدونة وسماه جامع الأمهات ثم الشيخ خليل (ت 776هـ) اختصر تهذيب البرادعي وسماه المختصر، والشامل لبهران تلميذ خليل، والتلقين للقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت.422هـ) من المدرسة البغدادية المالكية، وإلى جانب المختصرات نجد بعض الأراجيز في الفقه والأصول والقواعد مثل أرجوزة الولدان في الفرض والمسنون ليحي بن سعدون القرطبي (567هـ)، ومنظومة ابن عاشر في الضروري من علوم الدين، ومنضومة تحفة الحكام لابن عاصم في القضاء، ومنظومة المنهج المنتخب للزقاق في قواعد الفقه وتذكر كتب التراجم أنه بمجرد ما إن وصل مختصر الشيخ خليل إلى الجزائر إلا وأهلها قد تخلوا عن معظم المختصرات التي كانت عندهم وعكفوا عليه درسًا وحفظًا....بل قد أصبح يحفظ عند الناس على الألواح عن ظهر قلب كالقرآن الكريم فيقول الواحد منهم قد قرأت المختصر سلكة أو سلكتين أو ثلاث سلكات أو أربع سلكات...ومعنى السلكة هنا: الختمة، بل هذا المختصر ما زال تأثيره واضح عليهم إلى يومنا هذا حتى وجد فيهم من يقول: "نحن خليليون إن أصاب أصابنا وإن أخطأ أخطأنا"، ومع ما في هذه العبارة من التقليد والتحجر والجمود إلا أنهم ما وصلوا إلى هذه المرحلة من التشبث به إلا لما أحبوه فعشقوه وتوارثوه أبًا عن جد بل كل من يخالفهم فيقول: (قال فلان) بادروا إلى رده بقولهم: "قال خليل، وهل فلان يعرف أفضل من خليل؟"، هذا هو حال أهل الجزائر بالمختصرات الفقهية المالكية.

3- **مرحلة الشروح والحواشي والتعليقات والتقييدات**، وهذه مرحلة واسعة طويلة قد ألفت فيها كتب هائلة، إذ ما من مختصر إلا وقد شرح بعشرات الشروح، وحشيت هذه الشروح بعشرات الحواشي وعلق عليها بعشرات التعليقات وقيدت بعشرات التقييدات، خاصة منها مختصر ابن الحاجب الفرعي، ورسالة ابن أبي زيد

القيرواني، ومختصر خليل، ومختصر الدردير، ومختصر التلقين للقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي، ولأذكر بعض هذه الشروح على سبيل التمثيل لا الحصر: شرح الشيخ زروق على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، شرح ابن ناجي عليها كذلك، التوضيح للشيخ خليل على مختصر ابن الحاجب، الشرح الكبير للدردير على مختصر خليل، شرح الخرشي على مختصر خليل، مواهب الجليل للحطاب على مختصر خليل، شرح حلولوا على مختصر خليل شرح المازري على التلقين، شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل، شرح ميارة الفاسي على تحفة الحكام، وشرحه على ابن عاشر كذلك، المناسك الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية لابن منصور المغراوي، شرح مختصر خليل للقوري، الشروح الثلاثة لبهران علي خليل الصغير والكبير والأوسط، شفاء العليل بشرح مختصر خليل لابن غازي، شرح المقدمة القرطبية للشيخ زروق، وغيرها كثير كثير، واكتفيت هنا بذكر بعض الأمثلة فقط، ويكاد أهل الجزائر أن يقتصروا في هذه الشروح على شروح بهرام الثلاثة على خليل الصغير والكبير والأوسط، والكبير منها هو المعتمد عندهم أكثر من غيره، وكذا شرح الخرشي على الخليل، والشرح الكبير للدردير على خليل مع حاشية الدسوقي عليه، إلى جانب مواهب الجليل للحطاب على خليل.

ومن أشهر فقهاء الجزائر المالكيين أذكر على سبيل الأمثلة: أبا الحسن الصغير، ومحمد بن البقال، وأبا عبد الله محمد بن غازي، وأبا عبد الله القوري وعبد الرحمن القرموني، وأبا مالك عبد الواحد الونشريسي، وأبا الحسن علي بن موسى بن هارون، وعلي الوريا غلي، والشريف التلمساني، ومحمد ابن مرزوق الحفيد التلمساني، وأحمد الشمني القسنطيني، وأبا الفضل محمد المشدّالي، وأبا زيد عبد الرحمن الثعالبي، وأحمد بن يوسف القسنطيني، ويحي بن أبي عمران المازوني، وأبا الحسن علي الخزاعي التلمساني، ومحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني، وأحمد بن قنفذ القسنطيني، وأحمد المغراوي، وإبراهيم بن فائد الزواوي، وأحمد النقاوسي، وابن زكري التلمساني، ومحمد السنوسي، والحوضي محمد بن عبد الرحمان، وإبراهيم التازي، ومحمد الفراوسني

البجائي، وعيسى البسكري، وبركات القسنطيني، وبوعصيدة البجائي، ومحمد الهواري الوهراني، وسعيد قدورة، وأحمد زروق الذي استوطن بجاية، وعلي الأنصاري السجلماسي الذي استوطن الجزائر، وسعيد المقري التلمساني، وعمر الوزان القسنطيني، وأحمد الأطرش السنوسي، ومحمد الياجوري...

ب/ أشهر مراكز تدريس الفقه المالكي في الجزائر:

لقد ظهرت عدة مدن في الجزائر عبر الزمان تعتبر مراكز إشعاع للعلم وقبلة للمتعلمين والمعلمين وخزائن عظيمة للمخطوطات في شتى العلوم وعلى رأسها علوم الشريعة وفي صدارتها الفقه المالكي، إذ كانت تزخر بمدارسها ومساجدها وزواياها التي كانت تشع علمًا ساطعًا، ومن هذه المدن نذكر: تلمسان، وطبنة، وقسنطينة، وتاهرت، وبجاية، ومازونة، ووهران، وتنس، والجزائر، وعنابة، وبسكرة، وورقلة، وأدرار وسائر القصور الواقعة على طريق القوافل في الجنوب الجزائري.

دُور العلم: لقد كان لدُور العلم في الجزائر الدوْر الريادي في نشر الفقه المالكي والحفاظ عليه، وهذه الدُور العلمية متمثلة في المدارس والمساجد والزوايا الخاصة بالتعليم أذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر وحسب أهمية دورها فيه:

1- المدارس: لقد ظهرت في الجزائر عبر الزمان عدة مدارس عظيمة في هذه المدن السالفة الذكر كمدارس تلمسان الخمس وهي: مدرسة منشر الجلد ومدرسة ولدي الإمام ثم المدرسة التاشفينية، ومدرسة العباد وكانت خارج تلمسان، والمدرسة اليعقوبية وكان الملوك الزيانيون يولون هذه المدارس عناية خاصة، ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والموظفين بها، وكانت هذه المدارس تعتبر معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات في شتى المجالات[22]، خاصة لدينية منها كالأساتذة والأئمة والقضاة.

وغالبًا ما كان يشرف على هذه المدارس عائلات جزائرية اشتهرت بالعلم والتوارث فيه أبًا عن جد، تنافست فيما بينها لجمع العلوم في الصدور وفي السطور، فكان لكل عائلة خزائنها العظيمة للمخطوطات خاصة مخطوطات الفقه المالكي، إذ تظهر الإحصائيات أن نسبتها إلى نسبة باقي المخطوطات هي أكبر منه 75٪ ومن أشهر هذه العائلات: عائلة المقري والعقباني في تلمسان، وعائلة ابن باديس والقنفذ في قسنطينة وعائلة المنجلاتي والمشذالي في بجاية، وعائلة ابن السكات بمدينة الجزائر، كما اشتهرت بسكرة بعلمائها أبي زيان ناصر بن مزني وعيسى بن سلامة وأبي محمد عبد الله وعرفت مازونة – بالغرب – بعدد من الفقهاء أمثال موسى بن عيسى، يحي بن موسى صاحب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، أما مدينة الجزائر فقد اشتهرت بزاهدها وعالمها عبد الرحمن الثعالبي وتلميذه أحمد بن عبد الله الجزائري، كما اشتهرت مدينة وهران بالعالمين المتصوفين محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي)[24].

2- المساجد: والمساجد في الجزائر يومها ثلاثة أنواع: مساجد للصلاة فقط، ومساجد للصلاة والدرس في حلق خاصة، ومدارس للصلاة والدروس النظامية وهذه الأخيرة غالبًا ما يسكنها طلبة العلم وينفق عليهم من التبرعات المختلفة خاصة من الأهالي وهي شبيهة نوعًا ما بالزوايا التعليمية، وإن شئت قلت زاوية تعليمية مصغرة، وتسمى جوامع الرَحْلِ، فإلى جانب المدارس التي ذكرناها سابقًا فقد ظهرت عدة مساجد تعتبر جامعات تعطي العلوم الشرعية المختلفة خاصة الفقه منها، وتهتم بذخائر العلوم ونفائسها درسًا وتأليفًا وحفظًا للمخطوطات المختلفة في خزائن عظيمة نذكر من أبرزها: جامع العباد قرب تلمسان[25]، وجامع القصبة والجامع الكبير ومسجد أولاد الإمام سيدي الحلوي، وإلى جانب كل مدرسة من المدارس التي ذكرناها آنفًا كان يوجد مسجد للصلاة والحلق[26]، وقد ذكرنا بأن هذا النوع من المساجد لا يسكنه الطلبة واهتمامه بالعلم أقل من اهتمام جوامع الرَحْلِ.

أما طريقة التدريس الجاري بها العمل آنذك فكانت طريقة الإلقاء والشرح، يقول أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور في العلم المدروس، ويتولى الأستاذ شرحه فقرة بعد فقرة حسبما يتيسر له من غزارة حفظه وسعة إطلاعه، والطلبة يقيدون في كراريسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الأستاذ وأجوبته على أسئلة الطلبة[27]، إذ مازالت هذه الطريقة هي السائدة في الزوايا إلى يومنا هذا بل حتى في المساجد التي تنظم حلقات الدرس الخاصة كما يسميها بعضهم وفي كل هذه العلوم كانت العلوم الشرعية هي التي تحتل الصدارة في الاهتمام خاصة الفقه المالكي وأصوله إلى جانب التفسير والحديث واللغة[28].

جـ/ الزوايـا:

أما الزوايا فأصلها هو ما يعرف بالرباط وجمعها رِبَطٌ ورباطات وهي عبارة عن محتشدات للجهاد وإعلاء كلمة الله، ظهرت لما كانت سواحل الجزائر معرضة للخطر المسيحي الصليبي القادم من إسبانيا وفرنسا وعموم أوروبا المسيحية، إذ كانت ثائرة الجهاد عند الناس قائمة، وكان الطلبة فيها جنودًا وعلماء في نفس الوقت، وكان المجاهدون يجتمعون بها وينطلقون منها للجهاد ويأوون إليها للزاد وللسكن[29].

ولما زال الخطر الصليبي الذي كان يهدد الجزائر عندها بدأ اضمحلال هذه الربط وحولت إلى زوايا، إذ انتشرت بصورة كبيرة في أواخر أيام الزيانيين وخاصة في عهد العثمانين يوم تول هؤلاء الدفاع عن سواحل الجزائر ضدّ الأسبان الصليبيين واطمأن الناس أو كادوا يطمئنون، وشجع العثمانيون الطرق الصوفية وانتشارها في الزوايا العديدة حيث كان هو حال بلادهم، فلم يمانعوا في إنشائها أبدًا بل شجعوها واغدقوا عليها الأموال، وكانت مهمة الزوايا في بداية عهدها: استقبال الغرباء والوافدين من البلدان البعيدة خاصة رجال الدولة وأعيانها، وبمرور الأيام تحولت إلى أماكن مفضلة عند الصوفية إذ أخذوا يلجأون إليها لأنها تلائمهم في عزلتهم وفي انقطاعهم إلى

الجهاد الروحي والبعد عن الدنيا وصخبها، ثم تحولت إلى دور لاستقبال طلبة العلم من كل الأنحاء، فأصبحت إلى جانب المدارس والمساجد منارات لشتى العلوم، وإن كانت العلوم الأساسية عندهم هي الأوراد والأذكار الصوفية وتخضع إلى طريقة معينة من الطرق الصوفية، إذ كان الشيخ يتولى تعليم اتباعه ومريديه وتلامذته هذه الأوراد والأذكار، حتى لقد كانت تعطى إجازات للطلبة فيها، وإلى جانب هذا كانت تدرس الفقه المالكي والحديث وتحفيظ القرآن والقراءات وقليلاً ما كانت تدرس العلوم اللغوية، وهي لا تدرس علوم الطبيعة والفلسفة أبدًا، وفي الحقيقة فإن الزوايا في الجزائر على نوعين:

1- زوايا علمية همها الأكبر نشر العلوم الشرعية.

2- زوايا ليست علمية تهتم بالأوراد والحضرة، وكل منهما يشترك في ثائرة الجهاد عندما تتوفر ثائرته، ويذكر الدكتور سعد الله ناقلاً عن "لويس رين" الفرنسي الخبير في الشؤون الجزائرية إبان الاستعمار الفرنسي للجزائر: بأن عدد الزوايا في الجزائر قد بلغ 355 زاوية في سنة 1884م لما كان عدد سكان الجزائر بالغًا 2846757 نسمة وكان عدد مقدميها 1955 مقدما وعدد الإخوان فيها 167019 خونيًا، وعدد شيوخها 200 شيخًا، ثم يذكر أمثلة على هذه الزوايا في هذا العهد وهو عهد الاستعمار الفرنسي للجزائر:

نماذج من بعض الزوايا التي كان لها اهتمام كبير بالفقه المالكي في الناحية الغربية:

منها زاوية سيدي عدة بن غلام الله بتيارت، الزاوية التكوكية بمستغانم، الزاوية البطيوية ببطيوة، الزاوية الهبرية بوهران، وكلها زوايا تعليمية مثل مثيلاتها السابقة وزواية القيطنة بنواحي معسكر، وزاوية سيدي العربي (سيدي بوعبد الله المغوفل) نواحي ميلة وزاوية سيدي محمد بن عودة وزاوية سيدي دحو زاوية سيدي عمار بن درية وزاوية أولاد سيدي الشيخ، وكلها من الغرب الجزائري سادت قبل الاستعمار وبادت معظمها إبانه، فقد أعيد فتح معضمها بعد الاستقلال.

3- حركة الفقه المالكي في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي:

لقد أصيبت حركة الفقه في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي بضعف شديد نتيجة سياسة التجهيل والتفقير والتشريد والتقتيل التي كانت تتبعها فرنسا في الجزائر، وحتى أصف لك ذلك الضعف الذي أصاب هذه الحركة الفقهية في هذه الفترة في الجزائر لابد وأن أذكر ضعف المنظومة التعليمية بها أثناء الاستعمار الفرنسي عامة والتعليم الديني منه خاصة والفقهي أخص، وأكتفي بإبراز ما نص عليه الدكتور سعد الله قائلاً: "فإذا كان حال العلم غداة الاحتلال – وهي ما وجدته عليها فرنسا – هو الإزدهار والإنتشار والإحترام، فأين هو بعد ربع قرن من ذلك؟ لقد أهمل الفرنسيون التعليم في المدن والأرياف على السواحل لأسباب مختلفة منها: اغتصاب موارده، وكثرة الحروب، ومشاركة الطلبة والأساتذة في واجب الجهاد، وبعد ضعف التعليم – بل نكاد نقول انهياره – في المدن على إثر الاحتلال: بقي التعليم في الزوايا والمُعَمَّرَات، فخرج إليها التلاميذ،، واغتربوا فيها طلبًا للعلم والمقاومة الثقافية، وبعد تمكن الاستعمار من التوغل في الريف أيضًا ومراقبة المعلمين والتلاميذ ضعف التعليم هنالك أيضًا وحوصر إداريًا بالقوانين ولغويًا بالفرنسية، سيما منذ الستنيات من القرن التاسع عشر، وفي هذه الأثناء نشأت زوايا جديدة مثل زاوية الهامل ببوسعادة وأولاد جلال وقصر البخاري، وفتحت زاوية نفطة بتونس أبوابها أمام الجزائريّين، وظلت زوايا منطقة زواوة مستمرة في التعليم الأصلي الشرعي إلى ثورة 1871م على الاستعمار، وكل هذه الزوايا ترجع إلى الطريقة الصوفية الرحمانية عدى زاوية قصر البخاري التي كانت شاذلية، ومع ضغط الاستعمار في عهد الجمهورية الثالثة كادت حركة التعليم الأصلي الشرعي أن تختفي...وبعدها فقط ارتمى الناس في أحضان الطرق الصوفية والغموض والدروشة، واعتقدوا أن الخلاص لم يعد لا بالسلاح ولا بالتعليم ولكن ببركة الصوفي والمرابط"[30]، وهذه الحالة البائسة للتعليم كانت في غير

الناحية الغربية ومع ضعف حركة المقاومة والثورات ضد فرنسا مقارنة بالناحية الغربية وقد وصل بفرنسا أن فعلت بالتعليم هذه الفعلة الشنيعة: فما بالك بها في الناحية الغربية التي كانت ثائرة عليها منذ وطئت أقدامها الجزائر متزعمة حركة الجهاد بالأمير عبد القادر؟ لقد أصيبت حركة التعليم بالشلل التام نتيجة الحروب القاسية أثناء المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر؟ لقد أصيبت حركة التعليم بالشلل التام نتيجة الحروب القاسية أثناء المقاومة التي قادها الأمير عبد القادر، فقد تعرضت المدن الرئيسية إلى تبادل الأيدي عدة مرات، فهذه تلمسان ومعسكر، ومستغانم، ووهران تعرضت جميعها إلى خروج أهلها منها عدة مرات هروبًا من الاستعمار، ومنهم بالطبع المعلمون والتلاميذ، وتوقفت مدرسة مازونة عن وظيفتها مدة طويلة، وتعرضت المكتبات والمساجد والزوايا والمدارس إلى النهب والهدم والهجران... ونفس الشيء يقال على مليانة والمدية اللتين كانتا تابعتين لحكم الأمير عبد القادر إلى سنة 1840م ومن الزوايا الريفية في الجهة الغربية: زاوية القطنة بمعسكر التي توقفت أيضًا عن أداء مهمتها في التعليم أثناء المقاومة سيما بعد سنة 1836م، وقد عاشت هذه الظروف زاوية سيدي محمد بن عودة ناحية زمورة الغربية، وزاوية سيدي العربي نواحي مينة، والتي يمتد نفوذها من مستغانم إلى الأصنام، وزاوية أولاد سيدي دحو بمعسكر، وزاوية أولاد سيدي الشيخ بالبيض، وزاوية أولاد سيدي عمار بن دوبة...إلخ، ومنذ حوالي الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت زوايا جديدة نصبت نفسها للتعليم الأصلي الشرعي رغم المراقبة والمضايقة الفرنسية والقيود القانونية وجفاف الموارد، ومن ذلك زاوية أولاد الأكراد بتيهرت[31].

4- احتماء أهل الجزائر بالتعليم الأصلي الشرعي إبان الفترة الاستعمارية:

وفي هذا يقول الدكتور سعد الله بعد أن ذكر ما آلت إليه الزوايا – وهي التي تزعمت حول لواء العلوم الشرعية يومها – نتيجة تسلط الاستعمار الفرنسي عليها وضعف التعليم فيها والتعليم الشرعي عامة: ولكن يجب أن لا يفهم من هذا اختفاء الزوايا ودورها التعليمي تمامًا، فرغم التدهور الذي أصابها خلال الستينات – أي ستينات القرن التاسع عشر الميلادي – كما ذكرنا فإنها قد استمرت في أداء مهمتها في بعض المناطق كالجنوب، وزواوة والأوراس، وكان بعضها يكتفي بالحد الأدنى المسموح به وهو تحفيظ القرآن الكريم ومبادئ الدين كزاوية تماسين التيجانية، وزاوية قمار، وزاوية أولاد الأكراد بتيارت وزاوية العطاف، وبعض زوايا المدن التابعة للطرق الصوفية كالحنصلية في قسنطينة[32].

أما في الريف الذي كان لا يزال بعيدًا عن أيادي فرنسا وبطشها فقد استمرت المدارس القرآنية والزوايا والمساجد في تدريس التعليم الأصلي الشرعي، وكلما تمكنت فرنسا من ريف استأخرت تلك الزوايا أكثر فأكثر فارة من أيدي الاستعمار ومستمرة في تعليمها، خاصة تعليم القرآن الكريم لأنه الركيزة الأولى لحفظ الأمة ثم الفقه المالكي لأنه المنظم لحياتها والصائن لوحدتها والمثير لجهادها ضد المستعمر، ثم ينقل الدكتور سعد الله عن "هانوتو ولوتورنو" قولهما عن مشروع الزوايا في بلاد القبائل (زواوة) قائلاً: "فالزوايا التعليمية حينئذ يجب النظر إليها على أنها مشروع اجتماعي جماعي اشترك فيه كل السكان وافتخروا به وساهموا في تمويله والسهر عليه، ثم وزعوا بينهم الأدوار، فكان هناك دور للأسرة...وهكذا، إنه مشروع حضاري بمعنى الكلمة قد شهد الباحثون الأجانب على أن سكان كل قرية كانوا يتنافسون

على أن تكون زاويتهم أجمل الزوايا وأنظفها وأكثرها بياضًا واتساعًا، وكانوا يكرمون الضيوف ويطعمون الطلبة الغرباء بدون منّ ولا أذى ويتبرعون للزوايا بسخاء دون جبر أو سلطة أو وعيد"[33].

وما ذكرنا سابقًا في زوايا منطقة زواوة واستمرار تعليمها إلى ثورة 1871م واعتمادها التعليم الأصلي الشرعي: تحفيظ القرآن الكريم، دراسة الفقه المالكي وأصوله، الحديث النبوي الشريف، تفسير القرآن الكريم، النحو الصرف لخير دليل على احتماء بهذا التعليم الأصيل، ونعني به التعليم العربي الإسلامي، وهو نفس التعليم الأصلي الشرعي الذي أنشأته الجزائر في المعاهد الإسلامية غداة الاستقلال، بل سمّت وزارة الشؤون الدينية بـ: وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، إذ استمرت في ذلك التعليم الأصلي الشرعي إلى آخر سنة 1976م حيث أدمج مع التعليم العام بعد إثراء هذا الأخير بالمواد الأصلية الشرعية تحت التربية الإسلامية إذ صار يدرس للتلاميذ بعض سور القرآن الكريم، والفقه المالكي وأصوله، والحديث النبوي الشريف، ومقاصد الشريعة في أطوار مختلفة منه، ثم جاءت الجامعات لتفتح التخصصات المختلفة فيه مثل الفقه وأصوله، والشريعة والقانون، اللغة والدراسات القرآنية، الكتاب والسنة، تاريخ الحضارة الإسلامية..."

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

1- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط / دار الرشاد المملكة المغربية (د ت).
2- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تحقيق أحمد العبادي ومحمد الكتاني، ط / دار الكتاب، المغرب 1964م.
3- ابن بشكوال، الصلة، ط / مصر (د، ت).
4- ابن خلدون، المقدمة، ط / دار صادر، بيروت 2000م.
5- ابن فرحون، الديباج المذهب، ط/ دار التراث، القاهرة، مصر، (د، ت).
6- ابن مريم، البستان، ط/ الجزائر، 1908م.
7- ابن ناجي، مختصر معالم الإيمان في تاريخ القيروان طبع من المدونة،ط/ الفكر، بيروت 1991م.
8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط/ الجزائر، 1981، وط1/ دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان 1998م.
9- أحمد الناصري، الاستقصاء، ط/ المملكة المغربية، (د، ت).
10- أحمد زروق، شرح الرسالة، ط/ دار الفكر، بيروت 1982م.
11- الأطرش السنوسي، مالك ابن أنس ومدرسة المدينة، ط/ دار الغرب الجزائر، 1999م.
12- الإمام مالك، الموطأ، برواية يحي الليثي، ط/ دار الفكر، بيروت ط3، 2002م.
13- حسان عبد المنان، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ط/ بيت الأفكار الدولية، الأردن (د، ت).
14- الحميدي، جذوة المقتبس، ط/ مصر، 1952م.
15- صبحي المحمصاني، مقدمة في إحياء علوم الشريعة، ط/ دار العلم للملايين، بيروت 1962م.
16- صحيح البخاري، ط/ مكتبة الصفا، القاهرة، مصر 2003م.
17- صحيح مسلم، ط/ دار ابن حزم، بيروت، لبنان 2002م.
18- الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر(د، ت).
19- عبد العزيز بنعبد الله، معلمة الفقه المالكي ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان.
20- عبد الكريم عوفي، التعريف بمراكز المخطوطات في الجزائر، بحث مقدم بمعهد اللغة، جامعة قسنطينة، الجزائر (د،س).
21- علال الفاسي، فضائل الإمام مالك ومذهبه، ط/ المملكة المغربية.
22- علي بن زياد، موطأ مالك، تحقيق محمد النيفر، ط/ تونس (د، ت).
23- عمر الجيدي، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي منشورات عكاظ، (د، ت).
24- فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية بالجزائر (فانيا)، ط/ الجزائر (د،س).
25- فهرس مخطوطات خزائن دائرة أولف بأدرار، مخبر مخطوطات شمال إفريقيا – جامعة وهران.

26- القاضي عياض، ترتيب المدارك ط/ المملكة المغربية، ط/ وزارة الأوقاف المغرب، (د، ت).
27- مجموعة من الدكاترة، الجزائر في التاريخ، ط/ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984م.
28- محمد إبراهيم، اصطلاح المذهب عند المالكية، ط/ دار البحوث الإسلامية، دبي 2000م.
29- محمد أبي زهرة، مالك حياته وعصره، ط/ دار الفكر العربي لبنان (د، ت).
30- محمد الحجوي، الفكر السامي، ط/ المملكة السعودية (د، ت).
31- محمد الصغير المالكي، رياض النفوس، ط/ مصر، (د، ت).
32- محمد المرير، الأبحاث السامية، ط/ المملكة المغربية، (د، س).
33- محمد شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، ط/ المملكة المغربية 2000م.
34- محمد عبد الله العلوي، طبق الأرطاب ط/ وزارة الأوقاف المملكة المغربية، 1999م.
35- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ط/ دار الكتاب العربي بيروت (د، ت).
36- المشاط، الجواهر الثمينة في عالم المدينة، ط/ دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م.
37- المقري، نفخ الطيب، تحقيق احسان عباس، ط/ دار صادر، بيروت لبنان 1968م.
38- المقري، نفخ الطيب، ط/ دار الفكر بيروت لبنان (د، ت).

الهوامش:

(1) محمد أبو زهرة الإمام مالك بن أنس، طبعة دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، ط1، ص14.

(2) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ط/ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط1، ج4، ص56.

(3) محمد أبو زهرة، الإمام مالك بن أنس، المرجع السابق، ص376.

(4) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب الدعاء للمدينة وأهلها، حديث 1639، وأخرجه البخاري في صحيحه كتاب، الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس، حديث 7209، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج باب المدينة تنفي شرارها حديث 1381.

(5) رواه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب الدعاء للمدينة وأهلها، حديث 16347.

(6) الشيخ الأطرش السنوسي، مالك ابن أنس ومدرسة المدينة، المرجع السابق، ص(149 – 152)

(7) الشيخ الأطرش السنوسي، المرجع السابق ص153.

(8) محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص22.

(9) ترتيب المدارك 3 / 82.

(10) ملخص معالم الإمام مطبوع مع المدونة 1 / 66 ط / بيروت لبنان.

(11) مقدمة موطأ علي بن زياد ص36 طبعة الدار التونسية للنشر، تونس.

(12) أنظر أزهار الرياض 3 / 22.

(13) شجرة نور الزكية للشيخ مخلوف ص 77.

(14) أعمال الأعلام 1 / 12.

(15) تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي لمحمد شرحبيلي ص63.

(16) أنظر علال الفاسي في كتابه فضائل الإمام مالك ومذهبه ص34.

(17) المرجع نفسه.

(18) معالم الإيمان للدباغ 1 / 200.

(19) تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، المرجع السابق ص 37.

(20) آل عمران الآية 85.

(21) المصدر نفسه.

(22) مجموعة من الدكاترة والنص للدكتور عبد الحي حاجيات، الجزائر في التاريخ، ط / المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ج3، ص438.

(23) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص33، 34.

(24) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط / دار الرشاد المملكة المغربي، ج4 ص187.

(25) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط/ دار الرشاد، المملكة المغربي، ج4 ص137.

(26) مجموعة من الدكاترة منهم حاجيات، الجزائر عبر التاريخ، المرجع السابق، ج4، ص 438 – 439.

(27) مجموعة من الدكاترة منهم حاجيات، الجزائر عبر التاريخ، المرجع السابق، ج4، ص438 – 439.

(28) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق ج1 ص272.

(29) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3 ص (30 – 31).

(30) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج3 ص (31 – 32).

(31) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج3 ص(31 – 32).

(32) أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع السابق، ج3 ص182.